من بلاغة الاعتراض

للدكتور
إبراهيم السيد محمد رفاعى

حول مفهوم الاعتراض :

اختلفت وجهة نظر البلاغيين والنقاد في تحديد مفهوم الاعتراض فقد عرفه أبو هلال بقوله "هو اعتراض كلام فى كلام لم يتم ثم يرجع إليه فيتمه كقول النابغة الجعدى:

ألا زعمت بنو سعد بأنــى - ألا كذبوا - كبير السن فأنــى"(١)

فلم يشترط أن يكون الاعتراض جملة، أو أن يكون له محل من الإعراب أو ليس له محل، لكن أكثر البلاغيين اشترطوا أن يكون الاعتراض جملة أو أكثر، وأن لا يكون له محل من الإعراب كما اتضح من تعريفهم له حيث عرفوه بقولهم " هو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة" (٢)

فالاعتراض لا يكون إلا فى أثناء الكلام، أي بين كلامين متصلين كما هو واضح من المصطلح الذى أطلقه عليه العلماء، لكن جوز ابن رشيق مجئ الاعتراض فى آخر الكلام حيث قال :"وقد جاء الالتفات"(٣) "الاعتراض" فى آخر البيت... حكى عن اسحاق الموصلى أنه قال : قال لى الأصمعى : أتعرف التفات جرير ؟ قلت وما هو ؟ فأنشدنى

أتنسى إذ تودعنا سليمــى بعود بشامـة سقــى البشــام

ثم قال : أما تراه مقبلا على شعره إذ التفت إلى البشام فدعا له" (٤)

---

(١) الصناعتين ص ٤٤١. تحقيق. د. مفيد قميحة.

(٢) شروح التلخيص ج٣ص ٢٣٧

(٣) يطلق ابن رشيق على الاعتراض مصطلح الالتفات.

(٤) العمدة ج ٢ ص ٤٦.

وقد جوز الزمخشرى أيضا مجئ الاعتراض فى آخر الكلام حيث قال فى تفسير قوله تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا" (١)

"فإن قلت ما موقع هذه الجملة ؟ قلت هى جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب كنحو ما يجئ فى الشعر من قولهم: (٢) والحوادث جمة. فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته، لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلا كان جديرا بأن تتبع ملته وطريقته، ولو جعلتها معطوفة على الجملة قبلها لم يكن لها معنى" (٣)

وقد أطلق البلاغيون على ما جاء من الأساليب على هذه الطريقة مصطلح "التذييل"، وهو ما ذكره الآلوسى فى تفسيره للآية السابقة حيث قال :"واتخذ الله إبراهيم" تذييل جئ به للترغيب فى اتباع ملته عليه السلام، والإيذان بأنه نهاية فى الحسن ... ولا يجوز العطف - خلافا لمن زعمه - على (ومن أحسن)... سواء كان استطرادا أو اعتراضا ... لفقد المناسبة والجامع بين المعطوف والمعطوف عليه" (٤)

وتعريف البلاغيين السابق للاعتراض يشير أيضا إلى أن الاعتراض لا يكون إلا بجملة أو أكثر، فلا يكون بغير الجملة، لكن

---

(١) سورة النساء/١٢٥.

(٢) أى من قول امرئ القيس :

ألا هل أتاها - والحوادث جمـــة-   بأن امرأ القيس بن تملك بيقـــرا

(٣) الكشاف ج١ ص ٣٠١.

(٤) روح المعانى ج٥ ص ١٥٤.

ذكر أبو حيان فى تفسير قوله تعالى :(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أن - بنعمة ربك - اعتراض، حيث قال " ويظهر سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عطية :"بنعمة ربك" اعتراض كما تقول للإنسان : "أنت بحمد الله فاضل"(١)

نظرة البلاغيين للاعتراض والرد عليهم :

نظر أكثر البلاغيين إلى الاعتراض نظرة فيها قصور وظلم بين لهذا اللون البلاغى، فمنهم من جعله أدا لتزيين الكلام وتحسينه فذكره ضمن أبواب البديع، ومن هؤلاء ابن المعتز فى كتابه "البديع"، وأبى هلال العسكرى في كتابه "الصناعتين" وابن رشيق فى كتابه العمدة، والسكاكى في "مفتاح العلوم" حيث حصر البلاغة فى علمى المعانى والبيان، ثم ذكر وجوه تحسين الكلام ، وعد منها الاعتراض أو الحشو فقال :"وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها "المعانى والبيان" وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فههنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهى قسمان : قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، ثم يقول : فمن القسم الأول : الاعتراض أو الحشو، وهو "أن تدرج فى الكلام ما يتم المعنى بدونه كقول طرفة:

فسقى ديارك - غير مفسدها- صوب الربيع وديمة تهمـــــى

فأدرج غير مفسدها، وكما قال النابغة :

لعمرى - وما عمري على بهين- لقد نطقت بطلا على الأقـــارع

---

(١) البحر المحيط ج٨ ص ٣٠٧ وما بعدها.

فأدرج : وما عمري على بهين ..."(١)

وهؤلاء لهم عذرهم ، فلم تكن الحدود الفاصلة بين علوم البلاغة الثلاثة المعانى والبيان والبديع قد اتضحت بعد.

ومن البلاغيين من درسه فى إطار دراستهم للإطناب، وهم المتأخرون منهم، لأنهم رأوا أنه إطالة وزيادة فى الكلام لنكتة كالتعظيم والتأكيد والدعاء وغيرها من النكات التى تفيد أغراضا منفصلة عن الغرض الأصلى للكلام الذى ورد فيه الاعتراض، وقد كانت هذه هى نظرتهم للإطناب بوجه عام، لأنهم يرون أن البلاغة الإيجاز "وتعريفهم للإيجاز بأنه عرض المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة دون إخلال بالمعنى مع الإيضاح، وتعريفهم للإطناب بأنه زيادة التعبير عن مقدار المعنى دون عبث فى الزيادة، وهذان التعريفان يجعلان الإيجاز والإطناب وكأنهما متعارضان لا يلتقيان، والحقيقة أن الزيادة إذا لم تكن عبثا فهى مطلوبة يحتمها واقع الحال، فكل اختصار منها حينئذ يكون إخلالا بالتركيب ... لأن مقتضى الحال هو الذى يميل بالقول إلى سوائه بسطا واختصارا، ولمحا وإفاضة"(٢) ولذلك فقد عرف هؤلاء البلاغيون الاعتراض بقولهم :"هو أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر، لا محل لها من الإعراب لنكتة"(٣)

ومن البلاغيين من بالغ فى التقليل من شأنه والتهوين من أمره فعده حشوا، جئ به لقصد إصلاح الوزن، وتناسب القوافى وحـــرف

---

(١) انظر مفتاح العلوم ص ٤٢٣، ٤٢٨.

(٢) البيان القرآن د. محمد رجب البيومى ص ١٠٢.

(٣) شروح التلخيص ج٣ ص ٢٣٧.

الروى فى النظم، وقصد السجع وتأليف الفصول فى النثر، ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجي حيث قال :"ومن وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشوا، وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن، أو تناسب القوافى وحرف الروى إن كان الكلام منظوما، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثورا، من غير معنى تفيده أكثر من ذلك ، وهذا الباب يحتاج إلي شرح وبيان، وتفصيله: أن كل كلمة وقعت هذا الموقع من التأليف فلا تخلو من قسمين : إما أن تكون أثرت فى الكلام تأثيرا لولاها لم يكن يؤثر، أو لم تؤثر، بل دخولها فيه كخروجها منه، وإذا كانت مؤثرة فهى على ضربين : أحدهما : أن تفيد فائدة مختارة، يزداد بها الكلام حسنا وطلاوة، والآخر أن تؤثر فى الكلام نقصا وفى المعنى فساداً، والقسمان مذمومان، والآخر هو المحمود، وهو أن تفيد فائدة مختارة، ولكل من ذلك مثال، فمثال الكلمة التى تقع حشوا، وتفيد معنى حسنا قول أبى الطيب :

وتحتقر الدنيا احتقار مجـــرب   يرى كل ما فيها - وحاشاك - فانيـــا

لأن - حاشاك - ههنا لفظة لم تدخل إلا لكمال الوزن، لأنك إذا قلت : احتقار مجرب يرى كل ما فيها فانيا. كان كلاما صحيحا مستقيما، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاء حسنا للممدوح فى موضعه" (١)

فابن سنان يرى أن الاعتراض يمكن الاستغناء عنه، وأنه لو أسقط من الكلام صح المعنى بدونه، وأن كل فضل للاعتراض - إن كان له فضل- يكمن فى أن جملة الاعتراض قد تفيد معنى طارئا لا يضيف جديدا إلى النظم، بل قد ينقص من قيمته ، وأن جملة -

---

(١) سر الفصاحة ص ١٣٧: ١٣٨. تحقيق عبد المتعال الصعيدى.

وحاشاك - فى البيت المذكور لم يأت بها الشاعر إلا لكمال الوزن، وأن إفادتها الدعاء معنى طارئ، لا صلة له بالمعنى الأصلى للكلام الذى وقع فيه الاعتراض، فإسقاطها من الكلام لا ينقص شيئا من المعنى.

وهذا خطأ فى التصور، فالمقام هنا هو مقام المدح، ومواجهة الممدوح بهذا المعنى - وهو أن كل ما فى الدنيا فان - لا يليق، لأن الممدوح ضمن من يشملهم الفناء، فلو لم يذكر جملة - وحاشاك - لتحول المدح إلى دعاء على الممدوح، فأصبح لزاما على الشاعر - وفاء لحق المعنى - أن يذكر جملة الاعتراض، لأن معنى الكلام الذى وقع فيه الاعتراض لا يتم إلا بها، فجملة الاعتراض إذن من مقتضيات النظم، ومن متطلبات المقام.

وقد كان ابن الأثير من أبرز من قللوا من قيمة الاعتراض وهونوا من شأنه، فقد جعل وجوده فى الكلام كخروجه منه، فالمعنى - عنده - لا يتأثر بالاعتراض وجودا أو عدما، ولذلك عرفه بقوله:"كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقى الأول على حاله - ويوضح ذلك قائلا - ومثال ذلك أن نقول :زيد قائم، فهذا كلام مفيد، وهو مبتدأ وخبر، فإذا أدخلنا فيه لفظا مفردا قلنا: زيد - والله- قائم، ولو أزلنا القسم منه بقى على حاله، وإذا أدخلنا فى هذا الكلام لفظا مركبا قلنا : زيد - على ما به من المرض - قائم، فأدخلنا بين المبتدأ والخبر لفظا مركبا، وهو قولنا : على ما به من المرض، فهذا هو الاعتراض، وهذا حده"[١]

(١) المثل السائر ج٣ ص ٤٠، ٤١.

وقد عقب الأستاذ الدكتور عبد الغنى بركة على تعريف ابن الأثير للاعتراض قائلا "ولا ندرى ماذا يعنى ابن الأثير بقوله :"لو أسقط لبقى الأول على حاله" أيعنى أنه يظل محتفظا بمعناه كاملا حتى لا يكون هناك خلاف فى المعنى فى حالتى الذكر والحذف؟ هذا لا يتصور، فلم يبق إلا أنه يريد أن يبقى الأول بمعناه المفيد، يعنى الحكم بالمسند على المسند إليه، وهذا متحقق فى كل جملة تامة" (١).

وقسم ابن الأثير الاعتراض - بعد ذلك - إلى قسمين :
أحدهما : ما لا يأتى فى الكلام إلا لفائدة، وهو جار مجري التوكيد، وقد استشهد لهذا القسم بآيات من القرآن الكريم، وأبيات من جيد الشعر، وأبان عن الغرض البلاغى للاعتراض فيها، وإن كان لم يشر إلى حاجة السياق والمقام للاعتراض، ولا حديث لنا فى هذا القسم، لأنه قد اعترف بأن الاعتراض فيه قد جاء لفائدة.

ثانيهما : وهو الذى يأتى فى الكلام لغير فائدة، وقد قسم هذا القسم إلى ضربين :
الأول : أن يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه، لا يكتسب به قبحا ولا حسنا.
والثانى : وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصا، وفى المعنى فساداه وقد مثل للضرب الأول من القسم الثانى بقوله : "فن ذلك قوله النابغة :

يقول رجال يجهلون خليقتى   لعل زيادا -لا أبالك- غافل

فقوله : لا أبالك من الاعتراض الذى لا فائدة فيه، وليس مؤثرا فى البيت حسنا ولا قبحا.

(١) رؤية جديدة للإيجاز والإطناب ص ١٦١.

ومثله قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم[١]

فابن الأثير يرى أن جملة - لا أبالك - لا تؤثر فى الكلام زيادة أو نقصا، وأن وجودها فى الكلام كخروجها منه، ولقد غفل عن موضع الحسن وفائدة الاعتراض فى البيتين غفلة واضحة، فجملة - لا أبالك - كثيرا ما تأتى فى مواضع الضجر والضيق والعتاب والرد على افتراءات الوشاة، فالنابغة فى البيت الأول يرثى النعمان بن المنذر، فكم أوقع الوشاة بينهما، وكم لقى من الآلام بسبب وشاياتهم، فهو فى ضيق من هؤلاء الناس، كما أنه يعانى آلام الحزن بسبب موت النعمان الذى كان يحبه ويمدحه، كل هذه المشاعر قد أبرزتها جملة - لا أبالك - ولو لم يشتمل البيت على جملة الاعتراض ما استطعنا أن نحسن بما يعانيه الشاعر من آلام، وبما يعتمل فى صدره من مشاعر.

وفى البيت الثانى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعـــش

ثمانين حولا - لا أبالك - يســـأم

نجد رجلا قد بلغ من العمر أرذله، فقد عاش ثمانين حولا، وليس له من يساعده على تحمل تكاليف الحياة، ومشقات العيش، فقد كره البقاء فى الدنيا، وزهد فيها، فهو يعانى الضيق وآلام النفس، ولا نجد جملة تعبر عما في نفسه من مشاعر اليأس والضيق كما تعبر جملة الاعتراض - لا أبالك - فى هذا الموقع ومما يؤكد هذا المعنى، وأن جملة - لا أبالك - تأتى كثيرا فى مثل هذه المواضع وتحسن فيها "قول أبى همام

عتابـــك عنـــى - لا أبـــالك - واقصـــدى

---

(١) المثل السائر ج٣ ص ٤٧.

فإنه لما كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة علي طريق الذم"(١)

ويستشهد ابن الأثير للضرب الثانى وهو الذي يؤثر فى الكلام نقصا، وفى المعنى فسادا بقوله :"فمما ورد منه قول بعضهم :

فقد والشك بين لى عناء ... بوشك فراقهم صرد يصيح

فإن فى هذا البيت من ردىء الاعتراض ما أذكره لك، وهو:الفصل بين قد والفعل الذى هو بين، وذلك قبيح لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الأفعال، ألا تراها تعد مع الفعل كالجزء منه، ولذلك أدخلت عليه اللام المراد بها توكيد الفعل كقوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك) وكقوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه)، وقول الشاعر :

ولقد أجمع رجلى بهـــا ... حذر الموت وإننى لغــــرور

... وقد فصل فى البيت أيضا بين المبتدأ الذى هو "الشك" وبين الخبر الذى هو "عناء" بقوله "بين لى " وفصل بين الفعل الذى هو "بين" وبين فاعله الذى هو "صرد" بخبر المبتدأ الذى هو "عناء"، فجاء معنى البيت كما تراه، كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها فى مكان بعض"(٢)

فإبن الأثير يرى أن البيت مثال للاعتراض الذى يؤثر فى الكلام نقصا، وفى المعنى فسادا، حيث فصل بين لفظتى "قد"، "بين" بكلمة "الشك"، كما فصل بين "الشك" وهو مبتدأ، وبين "عناء" وهو خبره بقوله :"بين لى"، كما فصل بين الفعل "بين" وبين فاعلة "صرد" بخبر المبتدأ "عناء".

---

(١) انظر المثل السائر ج٣ ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق ج٣ ص ٤٨.

والحق أن ما ذكره ليس من الاعتراض، فإن الاعتراض ينبغى ألا يكون له محل من الإعراب، وما ذكر أنه من الاعتراض له محل من الإعراب، وأصل التركيب "فقد بين صرد يصيح بوشك فراقهم والشك لى عناء" وما لحق بالبيت من خلل إنما هو بسبب سوء النظم، فقد حدث تقديم وتأخير وفصل بين المتلازمين، فلما ساء ترتيبه، واختل نظمه تعقد لفظه فغمض معناه، وقد كان ابن جنى أكثر فطنة من ابن الأثير، وذلك عندما ذكر أن الجمل التى لها محل من الإعراب ليست من الاعتراض حيث قال :"فأما ما أنشده أبو على من قول الشاعر :

أتنسى - لا هداك الله - ليلى   وعهد شبابها الحسن الجميل
كأن - وقد أتى حول جديـد-   أثا فيها حمامات مثــول

فإنه لا اعتراض فيه (أى البيت الثانى) وذلك أن الاعتراض لا موضع له من الإعراب، ولا يعمل فيه شئ من الكلام المعترض به بين بعضه وبعض على ما تقدم، فأما قوله : "وقد أتى حول جديد" فذو موضع من الإعراب، وموضعه النصب بما فى "كأن" من معنى التشبيه، ألا ترى أن معناه : أشبهت وقد أتى حول جديد حمامات مثولا، أو أشبهها وقد مضى حول جديد بحمامات مثول، أى أشبهها فى هذا الوقت، وعلى هذه الحال بكذا"(١)

وقد استشهد ابن الأثير للضرب الثانى وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصا وفى المعنى فسادا بشاهد آخر حيث قال :"ومن هذا الضرب قول الآخر:

نشرت وشخصى- مطلع الشمس- ظلــه
إلى الغرب حتى ظله الشمس قد عقــل

---

(١) الخصائص ج١ ص ٣٣٨.

أراد نظرت مطلع الشمس وشخصى ظله إلى الغرب حتى عقل الشمس أى حاذاها، وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذى هو "شخصى"، وبين خبره الجملة وهو قوله : ظله إلى الغرب، وأغلظ من ذلك أنه فصل بين الفعل وفاعله بالأجنبى وهذا وأمثاله مما يفسد المعانى ويؤرثها اختلالا"(١)

وواضح أن قوله : مطلع الشمس لم يقع اعتراضا كما توهم ابن الأثير، وذلك لأن الأعتراض ينبغى ألا يكون له موضع من الإعراب، وألا يعمل فيه شئ من الكلام المعترض به بين بعضه والبعض، فمطلع الشمس له موقع من الإعراب، فهو إما مفعول به لنظرت أي نظرت مطلع الشمس... أو منصوب على نزع الخافض أى نظرت إلى مطلع الشمس، كما أنه مفرد وليس جملة كما اشترط البلاغيون. من هنا يتبين لنا مدى تخبط ابن الأثير فى تحديده مفهوم الاعتراض، ومدى عجزه عن كشف السر البلاغى للاعتراض فى بيتى النابغة وزهير.

الاعتراض من مقتضيات النظم :

من خلال ما سبق يتضح أن الاعتراض إذا وقع موقعه المناسب فى السياق فإنه يكون من مقتضيات النظم ومن متطلبات المقام، ذلك لأنه كثيرا ما يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذي وقع فيه ومقررا له فى نفوس السامعين وذلك كما فى قوله تعالى فى وصف المنافقين:"أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت - والله محيط بالكافرين - يكاد البرق يخطف أبصارهم...) (٢)

---

(١) المثل السائر ج٣ ص ٤٨.

(٢) سورة البقرة / ١٩، ٢٠.

فالله تعالى يؤكد هلاك المنافقين الذين يتخبطون، فلا يدرون أى طريق يسلكون، فيصورهم فى صورة قوم يسيرون فى الظلام وقد نزل بهم مطر شديد، صحبه رعد وبرق، فهم لا يرون طريقهم، ولا يهتدون إلى غايتهم، فالبرق لشدة ضوئه يكاد يخطف أبصارهم، والرعد لقوة صوته يكاد يخرق آذانهم، فهم يحاولون أن يقوا أنفسهم منه بوضع أصابعهم فى آذانهم طلبا للنجاة، فتأتى الجملة الاعتراضية (والله محيط بالكافرين) لتؤكد أنه لا نجاة لهم ولا مهرب، فقد أحاط بهم الهلاك من كل ناحية.

ومما جاء فيه الاعتراض مؤكدا لمفهوم الكلام الذى وقع فيه قوله تعالى مخاطبا بنى إسرائل :(وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها - والله مخرج ما كنتم تكتمون - فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحى الله الموتى ...)(١)

فلقد حاول كل واحد من بنى إسرائيل إبعاد تهمة القتل عن نفسه وإلقائها على الآخرين، ظنا منهم أن هذا الصنيع سيكون نافعا لهم فى إخفاء أمر القتل، فتأتى جملة الاعتراض - والله مخرج ما كنتم تكتمون -"لتقرر فى أنفس المخاطبين أن تدارء بنى إسرائيل فى قتل تلك الأنفس لم يكن نافعا لهم في إخفائه وكتمانه، لأن الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه"(٢)

ومن هذا أيضا قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام (قالوا تالله - لقد علمتم - ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين)(٣)

---

(١) سورة البقرة /٧٢، ٧٣.

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركش ج٣ ص ٥٩.

(٣) سورة يوسف /٧٣.

فلقد أراد إخوة يوسف تأكيد براءتهم من تهمة السرقة التى نسبت إليهم، فنفوا أن يكون مجيؤهم للإفساد أو السرقة، مؤكدين كلامهم بالقسم مبالغة فى نزاهتهم وعفتهم، ثم تأتى جملة الاعتراض (لقد علمتم) لتكون تأكيدا على تأكيد "فالحلف فى الحقيقة على الأمرين اللذين فى حيز العلم، لا على علم المخاطبين بذلك، إلا أنهم ذكروه للاستشهاد وتأكيد الكلام، ولذلك أجرت العرب العلم مجرى القسم كما فى قوله :

ولقد علمت لتأتين منيتى   إن المنايا لا تطيش سهامها

وفى ذلك من إلزام الحجة عليهم، وتحقيق أمر التعجب المفهوم من تاء القسم من كلامهم ما فيه"[١]

ومنه قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهارجرات فامتحنوهن - الله أعلم بإيمانهن - فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار...)[٢]

ففائدة الاعتراض - الله أعلم بإيمانهن - أن الله وحده هو الذى يعلم حقيقة إيمان النسوة المهاجرات، فهو مطلع على ما فى قلوبهن، فالمؤمنون مطالبون إذن بمعرفة الظاهر فقط، ولو لم تأت جملة الاعتراض لكان المعنى على أن المؤمنين مطالبون بمعرفة حقيقة إيمانهن ظاهرا وباطنا، وهو أمر ليس فى مقدورهم، ولذلك فإنهم كانوا يكتفون بتحليف المرأة المهاجرة، فقد روى أن المرأة إذا جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم حلفها عمر رضى الله عنه : بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله.

---

(١) روح المعانى للآلوسى ج١٣ ص ٢٧.

(٢) سورة الممتحنة/١٠.

ومما جاء فيه الاعتراض مؤكدا لمفهوم الكلام الذى وقع فيه قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) (١)

فقوله : (وهو الحق من ربهم) جملة معترضة فائدتها تأكيد مفهوم الكلام الذى جاء فيه الاعتراض، فالله تعالى قد خص الإيمان بما أنزل علي الرسول صلى الله عليه وسلم من بين ما يجب الإيمان به تعظيما لشأنه، وتأكيدا لأهمية الإيمان به، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به، وقد أكد ذلك بالجملة المعترضة (وهِو الحق من ربهم)، وقد أشار الآلوسى إلى وجه التأكيد بها حيث قال :"وهى جملة معترضة بين المبتدأ والخبر مفيدة لحصر الحقية فيه، على طريق الحصر فى قوله تعالى :(ذلك الكتاب)، وقولك : حاتم الجواد، فيراد بالحق ضد الباطل، وجوز أن يكون الحق على ظاهرة، والحق: الثابت، وحقية ما نزل عليه - عليه الصلاة والسلام - لكونه ناسخا لا ينسخ، وهذا يقتضى الاعتناء به، ومنه جاء التأكيد" (٢)

ومن هذا أيضا "قول كثير:

لو أن الباخلين - وأنت منهـم - رأوك تعلموا منك المطـــالا

فقوله - وأنت منهم - من الاعتراض الذي يؤكد به المعنى المقصود، ويزداد به مزية ونبلا، وفائدته هنا التصريح بما هو المراد ليثبته فى النفس، ويقرره فى الأذهان" (٣)

---

(١) سورة محمد/٢

(٢) روح المعانى ج٢٦ ص ٣٧ وما بعدها.

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص ٩٦.

الأغراض البلاغية للاعتراض:

وبالإضافة إلى أن الاعتراض يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذى وقع فيه ومقررا له نفوس السامعين فإنه يأتى لأغراض بلاغية أخرى: - منها : أنه يأتى لتعظيم المقسم به وتفخيمه وذلك كما فى قوله تعالى :(فلا أقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - إنه لقرآن كريم) (١)

فى هذا الكلام اعتراضان، أحدهما: قوله :(وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)، لأنه اعترض بين القسم الذى هو :(فلا أقسم بمواقع النجوم)، وبين جوابه الذى هو :(إنه لقرآن كريم)، وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو : (قسم)، وبين صفته التى هى : (عظيم) وهو قوله : (لو تعلمون)، فهذان اعتراضان "ولو جاء الكلام غير معترض فيه لوجب أن يكون - فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم - وفائدة الاعتراض بين القسم وجوابه : هو تعظيم شأن القسم به فى نفس السامع، ألا ترى إلى قوله تعالى :(لو تعلمون عظيم) كيف هذا الاعتراض بين الصفة والموصوف وذلك أوقع فى النفس لتعظيم المقسم به أى أنه من عظم الشأن وفخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم" (٢)

ومما جاء من الاعتراض لإفادة التعظيم - فى غير القسم - قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوعى إليهم - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون- بالبينات والزبر) (٣)

---

(١) سورة الواقعة / ١٧٥ وما بعدها.

(٢) انظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ص ٧٥.

(٣) سورة النحل /٤٣، ٤٤.

فقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر) جملة اعتراضية الغرض منها تعظيم أهل الذكر وتفخيم شأنهم، فهم أهل العلم بالكتب السماوية، فينبغى الرجوع إليهم عند الحاجة فإنه لا يستغنى عنهم، لأن فهم ما في الكتب السماوية من أحكام لا يتم إلا بهم.

ومما جاء من الاعتراض لإفادة التعظيم أيضا قوله تعالى :(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات - إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا - أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار...) (١)

فقوله تعالى - إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا - اعتراض جئ به لتأكيد جزاء المؤمنين وتفخيم أمرهم وتعظيم شأنهم، يقول الآلوسى " ولعل الأولى كون الخبر جملة قوله تعالى (أولئك لهم جناب عدن)، وجملة (إنا لا نصيع...) إلخ معترضة، ونحو هذا من الاعتراض كما قال ابن عطية وغيره قوله :

إن الخليفة - إن الله ألبسه   سربال ملك- به ترجى الخواتيم (٢)

- ومنها تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد على أمر تعلق بهما، وذلك للاهتمام به كما فى قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) (٣)

---

(١) سورة الكهف/ ٣٠، ٣١.
(٢) روح المعانى ج ١٥ ص ٢٦٩.
(٣) سورة لقمان /١٤.

فقوله تعالى (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين) اعتراض بين قوله (ووصينا الإنسان بوالديه)، وبين الموصى به (أن أشكر لى ولوالديك ...)، وفائدة هذا الاعتراض هو توجيه نظر الأبناء إلى الاهتمام بالأم أكثر من الاهتمام بالأب لضعفها، ولأنها تحملت من المشاق أكثر مما تحمله الأب، ففيه "إذكار الولد بما كابدته أمه من المشقة فى حمله وفصاله، فذكر الحمل والفصال يفيد زيادة التوصية بالأم، لتحملها من المشاق والمتاعب فى حمل الولد مالا يتكلفه الوالد، ولهذا جاء فى الحديث التوصية بالأم ثلاثا، وبالأب مرة" (١)

-ومنها إفادة المدح وإقامة الحجة وذلك كقوله تعالى (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلي صراط مستقيم - وكذلك جعلناكم أمه وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا - وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ....) (٢)

فقوله (وكذلك حعلناكم أمة وسطا..) اعتراض بين كلامين متصلين وقعا خطابا له صلى الله عليه وسلم استطرادا لمدح المؤمنين بوجه آخر، وتأكيدا لرد الإنكار بأن هذه الأمة وأهل هذه الملة شهداء عليكم يوم الجزاء، وشهادتهم مقبولة عندكم، فأنتم إذن أحق باتباعهم والاقتداء بهم، فلا وجه لانكاركم عليهم "(٣)

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركسى ج٣ ص ٥٨.
(٢) سورة البقرة /١٤٢، ١٤٣.
(٣) روح المعانى للآلوس ج٢ ص ٣.

-ومنها بيان سعة رحمة الله وقرب مغفرته وذلك كما فى قوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفوا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)(١)

فقوله (ومن يغفر الذنوب إلا الله) جملة اعتراضية الغرض منها بيان سعة رحمة الله وقرب مغفرته من عباده الذين أذنبوا فتذكروا الله واستغفروه وتابوا إليه توبه صادقة، لأنهم علموا أنه مطلع عليهم، يراهم وإن كانوا لا يرونه، وعلموا أيضا أن لا ملجأ منه إلا إليه، لأن الثواب والعقاب بيده، يقول الزمخشرى "وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأن عدله يوجب المغفره للتائب، لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه، وجب العفو والتجاوز، وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها، وردع عن النيأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم، والمعنى : أنه وحده معه مصححات المغفرة، وهذه جملة معترضه بين المعطوف والمعطوف عليه"(٢)

ويوضح الآلوسى مدى ما للنظم من أثر على دلالة جملة الاعتراض في الآية السابقة، وعلى مقدرتها على الوفاء بالغرض الذى جاءت من أجله فيقول :"والتركيب على ما أفاده بعض المحققين يدل على أمور من جهة الله تعالى، وأمور من جهة العبد.

---

(١) سورة آل عمران / ١٣٥.
(٢) الكشاف ج١ ص ٢١٧، ٢١٨.

أما الأول (أي ما يدل عليه من جهة الله)فعلى وجوه:

أحدها : دلالة اسم الذات بحسب ما يقتضيه المقام من معنى الغفران الواسع وإيراد التركيب على صيغة الإنشاء دون الإخبار، بأن لم يقل وما يغفر الذنوب إلا الله تقرير لذلك المعنى، وتأكيد له، كأنه قيل : هل تعرفون أحدا يقدر على غفران الذنوب كلها صغيرها وكبيرها سالفها وغابرها غير من وسعت رحمته كل شئ.

ثانيها : تقديمة عن مكانة وإزالته عن مقره لأنه اعتراض بين المبتدأ وهو (الذين)، والخبر الآتى، ثم بين المعطوف والمعطوف عليه، أو الحال وصاحبه للدلالة على شدة الاهتمام به والتنبية على أنه كلما وجد الاستغفار لم يتخلف الغفران.

ثالثها : الإتيان بالجمع المحلى بأل (الذنوب) إعلاما بأن التائب إذا تقدم بالاستغفار يتلقى بغفران ذنوبه كلها فيصر كمن لا ذنب له.

ورابعها : دلالة النفى بالحصر والإثبات على أنه لا مفزع للمذنبين إلا كرمه وفضله، وذلك أن من وسعت رحمته كل شئ لا يشاركه أحد في نشرها كرما وفضلا.

وخامسها : إسناد غفران الذنوب إلى نفسه سبحانه، وإثباته لذاته المقدسة بعد وجود الاستغفار، وتفصل عبيده يدل على تحقق ذلك قطعا بحسب الوعد كما نقول، أو بحسب العدل كما يقول المعتزلة.

وأما الثانى (أى ما يدل عليه من جهة العبد) ففيه وجوه أيضا:

الأول : إن فى إبداء سعة الرحمة، واستعجال المغفرة بشارة عظيمة وتطييبا للنفوس.

والثانى : أن العبد إذا نظر إلى هذه العناية الشديدة والاهتمام العظيم فى شأن التوبة يتحرك نشاطه، ويهتز عطفه، فلا يتقاعد عنها.

والثالث : أن فى ضمن معنى الاستغراق قلع اليأس والقنوط، ولهذا علل سبحانه النهى فى قوله تعالى :(لا تقنطوا من رحمة الله) بقوله جل شأنه: (إن الله يغفر الذنوب جميعا).

والرابع: أنه أطلقت الذنوب وعمت بعد ذكر الفاحشة وظلم النفس وترك مقتضى الظاهر ليدل به على عدم المباالاة فى الغفران، فإن الذنوب وإن كبرت فإن عفو الله أكبر.

والخامس : أن الإسم الجامع فى التركيب كما دل على سعة الغفران بحسب المقام يدل أيضا مع إرادة الحصر على أنه تعالى وحده معه مصححات المغفرة من كونه عزيزا ليس فوقه أحد فيرد عليه حكمه، وكونه حكيما يغفر لمن تقتضى حكمته غفرانه"[١]

-ومنها إفادة التنزية وذلك كما فى قوله تعالى :(وقالوا اتخذ الله ولدا - سبحانه - بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون)[٢] فالله - سبحانه - يحكى مقالة عن اليهود الذين ادعوا

---

(١) انظر روح المعانى ج٤ ص ٦١.

(٢) سورة البقرة /١١٦.

أن عزيزا ابن الله، وعن النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله، وعن مشركى العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، ويرد عليهم ادعاءهم، ويبطل زعمهم، ويضرب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من التشبيه بالمحدثات فى التناسل والتوالد وغير ذلك مما يجوز على البشر، فناسب السياق والمقام أن يأتى بجملة الاعتراض التي تقتضى التنزيه والبراءة من الصفات التى لا يصح أن يوصف بها - سبحانه - وذلك قبل أن يضرب عن مقالتهم، لما فى إثبات التنزيه من ردع وزجر لمدعى ذلك، يقول الزركشى :"فاعتراض (سبحانه) لغرض التنزيه والتعظيم" (١)

ومما جاء على هذا النحو أيضا قوله تعالى :(ويجعلون لله البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون) (٢)

فقوله - سبحانه - جملة اعتراضية، غرضها البلاغى تنزيه الله وتقديسه عما ينسبون إليه "وهم خزاعة وكنانة كانوا يقولون الملائكة بنات الله تعالى، وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها وبنوتها ..و (سبحانه) تنزيه وتقديس له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك، أو تعجب من جراءاتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة" (٣)

- ومنها : التهكم والتوبيخ. وذلك كما فى قوله تعالى (وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) (٤)

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ج٣ ص ٥٧.

(٢) سورة النحل /٥٧.

(٣) روح المعانى ج١٤ ص ١٦٧.

(٤) سورة النساء /٧٢، ٧٣.

فقوله - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - وقعت اعتراضا، الغرض منه التهكم بالمنافقين الذين كانوا يوادون المسلمين فى الظاهر، ويحسدونهم ويبغضونهم فى الباطن يقول الزمخشرى "قوله "كأن لم تكن بينكم وبينه مودة" اعتراض بين الفعل الذى هو (ليقولن)، وبين مفعوله وهو (ياليتنى) والمعنى : كأن لم تتقدم معكم موادة، لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر وإن كانوا يبغون لهم الغوائل فى الباطن، والظاهر أنه تهكم، لأنهم أعدى أعداء المؤمنين وأشدهم حسدا لهم، فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكما بحالهم"(١)

ويرى الفخر الرازى أن الغرض من الاعتراض التعجب فيقول : "حكى تعالى عن المنافق سرورهم وقت نكبة المسلمين، ثم أراد أن يحكى حزنه عند دولة المسلمين بسبب أنه فاتته الغنيمة، فقبل أن يذكر الكلام بتمامة ألقى قوله "كأن لم تكن بينكم وبينه مودة" والمراد : التعجب، كأنه يقول : انظروا ما يقوله هذا المنافق، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة أيها المؤمنون ولا مخالطة أصلا. فهذا هو المراد من الكلام"(٢)

ومما جاء من الاعتراض مفيدا للتوبيخ قوله تعالى (وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) (٣)

---

(١) الكشاف ج١ ص ٢٨٠.
(٢) مفاتيح الغيب ج٣ ص ٢٦٢.
(٣) سورة النحل /١٠١.

فقوله - والله أعلم بما ينزل - وقع اعتراضا الغرض منه توبيخ الكافرين الذين ادعوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم متقول على الله تعالى، والتهكم بهم، وبيان فساد قولهم يقول الآلوسى" والجملة معترضة لتوبيخ الكفرة، والتنبيه على فساد رأيهم، وفى الالتفات إلى الغيبة مع الإسناد إلى الإسم الجليل وما لا يخفى من تربية المهابة، وتحقيق معنى الاعتراض"(١)

ومن الأغراض البلاغية للاعراض الدعاء وذلك كما فى قول "عدى بن زيد العبادى - وهو فى حبس النعمان - يخاطب ابنه زيدا ويحرضه :

فلو كنت الأسير - ولا تكنه - إذا علمت معد ما أقول(٢)

فهو يحرض ابنه على إخراجه من السجن ويقول له : لو كنت أنت الأسير لكنت قد فعلت أنا ذلك، لكنه قد جاء بجملة الاعتراض لغرض الدعاء، لأن المقام يتطلب الدعاء لابنه ألا يقع فى الأسر كما وقع هو.

ومما جاء فيه الاعتراض لإفادة الدعاء " قول عوف بن محلم لبعد الله بن طاهر:

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان"(٣)

فقوله - وبلغتها - جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء للمخاطب لأن المقام يتطلب من الشاعر الدعاء لمخاطبه بطول العمر.

---

(١) روح المعانى ج١٤ ص ٢٣.
(٢) العمدة لابن رشيق ج٢ ص ٤٧.
(٣) السابق ج٢ ص ٤٥.

والأغراض البلاغية للاعتراض كثيرة، فهى تتعد بتعدد طرق القول ودروبه، وهي فى جملتها تدل على أهميته كوسيلة من وسائل التعبير.

وعلى هذا يمكن القول بأن الاعتراض ليس وسيلة للتحسين فحسب، وليس حشوا يمكن الاستغناء عنه، بل إنه إذا وقع موقعة المناسب كان من متقضيات النظم ومن متطلبات المقام، ولو أسقط من السياق سقط معه جزء أصيل من المعنى، فهو يحمل بجانب كونه جزءا من المعنى الأصلى معانى فرعية أخرى، تلتحم جميعا فى تكوين معنى كلى، وقد جعله البعض دليلا على فصحاحة المتكلم وامتداد نفسه، يقول ابن جنى "والاعتراض فى شعر العرب ومنثورها كثير وحسن، ودال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه"(١)

---

(١) الخصائص ج١ ص ٣٤٢.

مراجع البحث ومصادره

١) البحر المحيط لأبى حيان - طبعة دار الفكر - الطبعة الثانية.

٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة بيروت.

٣) البيان القرآن د. محمد رجب البيومى، طبعة دار النصر- مجمع البحوث الإسلامية.

٤) الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار - الطبعة الثانية.

٥) رؤية جديدة للإيجاز والإطناب د. عبد الغنى محمد بركة - طبعة دار الطباعة المحمدية - الطبعة الأولى.

٦) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للآلوسى - طبعة دار التراث.

٧) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى - شرح عبد المتعال الصعيدى - مطبعة صبيح.

٨) شروح التلخيص - مطبعة السعاد- الطبعة الثانية.

٩) الصناعتين لإبى هلال العسكرى- تحقيق. د. مفيد قميحة. طبعة دار الكتب العلمية.

١٠) العمدة لابن رشيق - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد- طبعة دار الجيل.

١١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم - مكتبة المتنبى.

١٢) الكشاف للزمخشرى - مطبعة دار المعرفة ببيروت.

١٣) المثل السائر لابن الأثير تحقيق د. أحمد الحوفى، د. بدوى طبانة - الطبعة الثانية.

١٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى- طبعة المطبعة الحسينية.

١٥) مفتاح العلوم للسكاكى - تعليق نعيم زرزور- طبعة دار الكتب العلمية.